انقضاء الفي سنة على فرجيل

في مثل هذا اليوم (١٥ اكتوبر) من الفي سنة ولد لاحد خاصة الفلاحين في مقاطعة اندس بجنوب ايطاليا طفل بنتهُ الطبيعة من اولئك الخلائق النادرين نريد شاعراً مطبوعاً بالحق ! اما الام فلا نعرف عنها اكثر من اسمها . واما الاب فقيل انهُ رجلٌ ساذج قضى حياتهُ في التحريج والنحالة ولكنهُ عرف كيف يخرج من ابنهِ العالم والتاريخ اثراً مدرسيًّا خالداً

وأُرسل الولد الى مدرسة في كريمونا اولاً ثم الى مدرسة اكبر منها في ميلان ولما بلغ الثامنة عشرة من عمرهِ جاء رومة لينعم في ظلال مشيّداتها الخالدة بالجلوس عند اقدام امراء البيان والخطابة في ذلك العصر . وقد ذكر بعض المؤرخين ان اوكتافيوس ابن اخي يوليوس قيصر الذي اصبح الامبراطور اغسطوس فيما بعدُ كان من رفقائهِ في طلب العلم

ودرس فرجيل في رومة لغة الرومان وادبها معلقاً شأناً كبيراً لخطباء اللاتين وفصاحتهم غير مهمل فلاسفة اليونان ومذاهبهم . وكان ذا نفس وثابة الى طلب المعرفة فاصطفى في معهد العلم طائفة من ناشئي البيان الذين اصبحوا فيما بعد اصدقاءهُ الاوفياء واشرقوا واياهُ في سماء الادب فكانوا الانوار الادبية اللامعة التي ازدهى عصر الامبراطور اغسطس وهو من اعظم العصور الادبية في التاريخ واعظمها في التاريخ الروماني بلا منازع

كان فرجيل كثير الحياء قليل الاختلاط بالناس . وكان اثر الازواء في طفولتهِ في مزرعة ريفية ترك ظلاً من ذلك في نفسهِ الى آخر حياتهِ . ثم ان ضعف بنيتهِ وضيق صدره وقفا في سبيلهِ سدًّا منيعاً دون العظمة التي كان ينشدها فتيان قومهِ في الحيش والسياسة. وكان قد ورث من والديهِ ما مكنهُ من الانقطاع للدرس والتأليف فعكف عليهما . ومن حظهِ انهُ كان لا يزال في ريعان شبابهِ لما انتهت في الدولة الرومانية فترة النزاع الداخلي واتجه القوم اميراً وشعباً الى توطيد اركان السلام

فبعد واقعة فيلبي عاد الحكام الثلاثة الى رومة وجعلوا يسرّحون جيوشهم محاولين ان يقطعوا لهم ارضاً يستقرون فيها يحرثونها ويجنون خيراتها . وكانت بعض المقاطعات الايطالية قد ثارت عليهم فصادروا ممتلكات الشعب في تلك البلاد ووهبوها للجنود الظافرين وكانت المقاطعة المجاورة لمنتوى حيث ولد شاعرنا منها فاضاع ما ورثهُ من ابيهِ فطلب لهُ اصحاب النفوذ

من اصدقائه في البلاط الامبراطوري أن تعرضهُ الحكومة ما تقدر فتحتَ قطعة ارض قرب نولا في كمپانيا فكان ذلك سبباً الى الاتصال بزعماء البلاط وعظمائه. ومن ذلك الحين بسط له الدنيا واقبلت فعاش موفور النعمة عزيز الجانب كثير الاصدقاء والمريدين مبجلاً لهُ من كل الشعراء الذين عاصروهُ بأنهُ اميرهم. قيل انهُ كان مرة في احد المسارح حيث انشدت بعض قصائده فصاحت الجمهور بينهم وقفوا كلهم اجلالاً لهُ. ويقال انهُ لما نشر قصائده الرعوية (الاكلوج) تيمَّن به زعماء البلاط « شاعر العرش » المقبل

***

وكان في روما في تلك الايام (حوالى ٣٧ ق . م .) رجل مشهور يدعى ميسيناس كان بارعاً في تسيير دفة الشؤون الكبيرة من وراء ستار وظل ستين طوالاً صديق اوكتافيوس ومستشارهُ الاكبر. فلما صار اوكتافيوس امبراطوراً واتخذ لقب اغسطس قيصر عيَّن ميسيناس حاكماً لايطاليا. ويقول بعض المؤرخين انهُ لما رأى هذا ضعف الحكومة وحاجة البلاد الى ادارة حازمة لوقايتها من الفوضى حضَّ اوكتافيوس على الانفراد بالسلطة دون رفيقيه لهذا الغرض

واذ كان ميسيناس حاكماً لايطاليا انصرف كلَّ الانصراف لما ندعوه الآن « سياسة الانشاء » في احوال الشعب المادية غير غاضٍّ نظرهُ عن فنون الادب والجمال . وشهرتهُ الباقية انما هي قائمة على انهُ كان نصيراً لرجال الادب والفن . وكان فوق كل ذلك ذا ثروة كبيرة عظيم السخاء في تشجيع الشبان الناشئين في ميادين الفنون الجميلة . على انهُ لم يكن من الهواة الذين يشجعون الفنون لانهم لا يدرون ما يفعلونهُ بفيض ثروتهم من غير ان يدركوا قيمة الفنون التي يشجعونها على ما نحو ما يفعلهُ بعض المثرين الاميركيين في هذا العصر ، بل كان رجلاً مثقفاً بفلسفة اليونان والرومان وآدابهم واساليبهم الفنية فادرك بزكنهِ أن رومة وقد تحرَّرت من سيطرة اليونان الثقافية اصبحت مستعدة لتنشىء ادباً رومانيًّا. ورأى علاوة على ذلك ان لا يكتفي بجعل الشعراء زينة في قصر الامبراطور بل يجب ان يكسب بواسطتهم عطف الجمهور على نظام الحكم الحالي وخصوصاً اذا كانوا يستطيعون ان يلقوا على اشعارهم في مدح هذا النظام سمة من الارادة الالهية. فرأى في فرجيل الرجل المنشود لهذا الغرض فاعترف انهُ يستطيع ان يتخذه صوتاً اليًّا لتمجيد الريف والحياة الريفية واعمال الزراعة على انواعها علَّهُ يُخلق بذلك حركة اقتصادية تزجر الشبان عن التقاطر الى المدن وحثهم على العودة الى الطبيعة

فنظم مدفوعاً بهذا الغرض النبيل قصائد « الجورجكس » التي اشرنا اليها في العدد الماضي ونشرها سنة ٢٩ ق.م. وهي في نظر النقاد اكمل اعماله من الوجهة الفنية وكلهم مجمعون على اطرائها لما تحتوي عليه من بسط دقيق لاساليب الزراعة القديمة في ايطاليا ووصف

جلي لظاهرات الطبيعة فيها. انك تقع فيها على وصف شعري مخجل يفصّل لك كيف كان الروماني يحرث الارض ويغرس الكرم ويربي الماشية ويعتني بالخيل . انهُ سبق مرتلك بعشرين قرناً في التغني بجوانب النحل وما في عالمها من دروس اجتماعية جديرة بالتدبر . ثم انك تتبين في اناشيدها المختلفة معنى تخفيه السطور ولكن تجلوهُ روح الشاعر البارزة في سياق المعاني وهو «جلال العمل» . انك تحسُّ بعد قراءتها بان فرجيل يمجد العمل لانهُ في نظره ضرورة لا مندوحة عنها لرفاهة الحياة وكسب رضا الآلهة

كان الرومان القدماء شعباً نشيطاً ظهرت آثار نشاطه في الحرب والسلم وفي الشريعة والادب، في بناء الطرق ونقش التماثيل وفوق كل هذا في زرع الارض واستغلالها. فغرض فرجيل من قصائده هذه ان يحيي في ابناء اولئك القدماء العناية بالارض على منوالهم ، وان يعود بهم الى الاخذ بالصناعات الزراعية في زرع الكروم والزيتون . في تربية النحل والخيل . في حراثة الارض لتخرج خيراتها غلالاً متنوّعة . وفي كل مقطوعاتها تشعر بما يريد تمكينهُ في النفوس من تفوّق البلاد الايطالية على كل البلدان الاخرى فكأنهُ يقول يجب ان تعترف لايطاليا بتفوق جمال مشاهدها الطبيعية وخصب تربتها واستقرار احوالها الجوية . هذه حنطة ابوليا وكروم فالرنيا وزيت نافروم وعسل كالابريا . اي بلاد تخرج ارضها مثل هذه الخيرات ؟

***

اذا كنا نريد ادباً قوميًّا فهذا ميدان يكاد يكون بكراً بيننا !

***

ولما عكف فرجيل على كتابة اعظم قصائده «الاينيد» وهي «قصة اسفار اينيس وحروبه ومغامراته وكيف اسّس رومية » استمدَّ وحيهُ من الشعور العام الشائع بين طبقات الرومان في ذلك العصر . فقد كان الرومان مؤمنين بتفوقهم على الشعوب البشرية مقتنعين بان الهدف المقدّر لهم انما هو السيطرة على الارض . ولما كانوا ممتازين بمقدرتهم على الحرب والحكم اخذ هذا التمجيد القومي يشتدُّ ظهوراً بينهم حتى بلغ اوجهُ في ايام فرجيل لما اصبحت روما امبرة الجهاد روما ربة النصر «ايها الرومان اخضعوا الارض واحكموها » . بهذه الكلمات كانوا يلخصون الفرض العظيم الذي نصبتهُ الآلهة لهم . وانت اذا راجعت الاينيد رأيت المعنى المسيطر على القصيدة في ابياتها التسعة الآلاف والثمانمائة والستة والتسعين انما هو الوطنية المتأججة . على انها كانت وطنية يكبر من حدتها ويلطّف من طغيانها تأمل الشاعر في معاني الحياة والحضارة ووزنه لها بميزان الحكمة الدقيق

كان فرجيل قد تأمل معنى الحضارة طويلاً لما شرع في نظم الاينيد فثبت لهُ ان الارتقاء

الذي نصد ان يجدهُ لم يبنَ الاَّ في بحر من النعم على اركان من الاسى . ويقال انهُ كان ينظم بضعة ابيات كل صباح ثم ينقحها ويصقلها في اثناء النهار. ولكن المطلع على قصيدته يدرك ان الشاعر كان يطيل التأمل في موضوعها اكثر من اطالته التأمل في اسلوبها والفاظها . فالسطر الاول في القصيدة كما هي متداولة الآن (مع انهُ لم يكن السطر الاول في نسخة فرجيل نفسه) يعلن القارىء بأن هذه قصيدة حرب وكفاح . ولكنها ، على رغم ما فيها من الحروب والمغامرات بعيدة عن تمجيد الحرب . خذ مثلاً على ذلك وصول اينيس الى قرطاجنة بعد ما حملتهُ الرياح من صقلية اليها . انهُ لم يقف هناك موقف المعجب لظفر رومة على قرطاجنة بل وقف وقفة المعتبر المتذكر . وبدلاً ان يفاخر بالنصر الروماني ساءل نفسهُ عن السبب الذي حال دون ائتلاف الامبراطوريتين وهل فوز رومية بذلك اسوار نذتها الى الارض دليل على انها تفوقها فضلاً وثقافة ؟! ان هذه المسألة القديمة التي جالت في خاطر فرجيل تتخذ من مشاكل العصر الحاضر صوراً عديدة . لماذا بنيت عظمة انكلترا على حساب تقدم اسبانيا ؟ ولماذا نجم عن احتلال البيض لقارة الاميركية تلاشي الهنود الحمر ؟ ولماذا ينظر العالم الى الحضارة الاميركية الحالية نظرهم الى شبح مخيف ؟ ان شاعرنا لا يجيب جواباً ولا نحن نجيب . انهُ يمثل قرطاجنة في شخص ديدو تمثيلاً يبعث في نفس القارىء عطفاً عليها لا على روما ثم يلقي التبعة في مأساتها على ارادة الآلهة ! واذا ملاك من السماء يهمس في اذنيه لماذا تضيع وقتك في بناء مدينة للقرطاجنيين فانت زعيم شعب تبشرهُ الآلهة والآلهة تقول «الى الاعمال السمح الخالدة ! »

قضى فرجيل احدى عشرة سنة في نظم الاينيد ولو لم يداجهُ الموت لقضى — كما كان ينوي ان يفعل — ثلاث سنوات اخرى في تنقيحها وصقلها . والحقيقة ان الغرض من سفره الى بلاد اليونان سنة ١٩ ق. م. انما كان لاستجمام قواه الخائرة حتى يتمكن من انجاز قصيدته على النحو الذي يرضاه . ولكن السفر اضناهُ فلما وصل الى اثينا ووجد الامبراطور اغسطس على وشك الرجوع الى ايطاليا رجاهُ في ان يسمح له بالعودة في ركابه . وكان قد اصيب بالملاريا في بحار قاسية قواه وجاء السفر ضنثاً على ابالة فلم يكد يستقرُّ في برندزي حتى توفي في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩ ق. م. وهو في الحادية والخمسين من العمر

واذ هو مضطجع على فراش الموت طلب الى اصدقائه ان يحيشوهُ باصول الملحمة الرومانية الكبرى التي تقضى في نظمها احدى عشرة سنة وغرضهُ من ذلك ان يجعلها ماكلاً للنار لانهُ لم يكن يرضى ان يترك للاجيال المقبلة عملاً لم يتعهده بكل ضروب الاتقان . ولكن اصدقاءهُ اقنعوهُ بأنهم لا يسمحون بنشرها . فلما سمع الامبراطور بذلك ضنَّ بها ان تبقى مطوية فوهبها للعالم !

الحديد: تعدينه وتقسيته وصناعته[1]

عند قدماء المصريين

كثرت المؤلفات في موضوع « الحديد عند قدماء المصريين » وتضاربت آراء الباحثين فيه. والغريب ان الباحث يستطيع ان يفسر الادلة في بعض نواحي الموضوع تفسيراً يؤيد آراء متباينة كل التباين. فلدينا في موضوع التاريخ الذي بدأ فيه استعمال الحديد طائفتان من الادلة احداها مباشرة واخرى غير مباشرة. والنتيجة التي نخرج بها من النظر في هذه الادلة تتوقف على الطائفة التي تقدمها على اختها شأناً ومقاماً. فالادلة القائمة على كشف ادوات حديدية واتاتين لصهر الحديد واشارات اليه في الكتابات او الصور هي الادلة المباشرة. واما وجود تماثيل منقوشة في صخر صلد لا بدّ في نقشها من ادوات حديدية صلبة فدليل غير مباشر

ولم يعثر حتى الآن الاّ على ست ادوات حديدية ثبت رجوعها الى سنة ١٣٠٠ ق. م مع انه عُثر على ادوات حديدية كثيرة خاصة بعهود تالية لذلك. فاعتماداً على ذلك اشار السر فلندرز بتري الى ان استعمال الحديد لم يشع في مصر قبل الحقبة الواقعة بين ١٣٠٠ — ١٢٠٠ ق.م. مع انهُ استعمل استعمالاً متفرقاً في العصور الواقعة بين ٢٠٠٠ — ٣٠٠٠ ق.م.

ومما يشير الى تأخر استعمال الحديد الادلة التي استخرجها ركرد من الصور المصوّرة على الجدران التي ترجع الى عهد سابق لسنة ٢٠٠٠ ق.م. فان فيها رسوماً لاسلحة ملوّنة لوناً اصفر او احمر وهذان اللونان يمثلان النحاس والبرنز. ولكنهُ لم يرَ صور ادوات من حديد وهو المعدن الذي كان يلوّن لوناً ازرق. وفي القوائم الطويلة لما كان يجمع جزية في عهد الاسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ — ١٣٠٠ ق.م) لم يجيء ذكر الحديد مطلقاً. والمعروف ان رعمسيس الثاني (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق.م) كتب الى ملك الحثيين يطلب خنجراً. وفي التابوت الداخلي الذي وجد في مقبرة توت عنخ آمون المتوفى سنة ١٣٦٠ ق.م وجدت ثلاث ادوات حديدية هي نصل خنجر وقطعة من سوار كان يستعمل عوذة ومسندٌ مصفّر للرأس وقد خلص ركرد من مكان هذه الادوات في لفائف المومياء الى انها كانت اثمن مقتنيات توت عنخ آمون وان الحديد في تلك الايام كان اندر من الذهب الابريز الذي صنع منهُ التابوت. وقد عُثر بين الامتعة الخاصة بالدفن التي وجدت في الترف الملحقة بمدفن توت عنخ آمون على ادوات حديدية مصفّرة فقال السّر هورد كارتر مكتشف القبر انها قد تكون

(١) وهو ملخص رسالة لسر هارولد كربتر والدكتور روبرتسن ثيت في عهد الحديد والصلب بلندن

هدايا اهديت الى الملك الفتى احتفاء بوصول الحديد الى مصر او اكتشافه فيها . فهذه الادلة التي اوجزناها فيما تقدم تشير الى ان الحديد كان نادراً في مصر قبل سنة ١٢٠٠ ق.م. مع انهُ لم يكن مجهولاً فيها . والراجح انهُ لم يكن يصنع فيها قبل ذلك العهد وعظم علماء الآثار على هذا

واذا كانت الادوات الحديدية نادرة في مصر قبل سنة ١٢٠٠ ق . م . فالادوات المصنوعة من النحاس والبرونز كانت كلٌّ ما يعتمدهُ الصنّاع والنقاشون في عملهم . ومع ذلك نرى ان المصريين آثاراً فنية رائعة من عهد الاسرة الرابعة (٢٩٠٠ ق.م) منقوشة في حجارة صلدة كالغرانيت والديوريت . وقد اشار اليها الاستاذ ان غارلند وبانتر بأنها آية من آيات فن النقش في وضوح معالمها وصحة اتساقها ودقة زواياها وخطوطها القائمة وحدة حروفها واناقة منحنياتها . ونقش من هذه الطبقة الفنية يرجع الى الف سنة قبل صنع البرونز اي فما كانت الادوات النحاسية الادوات الوحيدة المستعملة . وحتى لو فرضنا ان ادوات البرونز استعملت حينئذٍ فمن الصعب ان نفهم كيف قام المصريون بهذا النقش . فبعضهم يقول ان المصريين كانوا يعرفون طريقة سرية لتقسية النحاس وفي ذلك رأيان احدهما لبتري فهو يقول انهم استعملوا ادوات مصنوعة من نحاس مخلوط بالسنباذج او ادوات مصنوعة من البرونز . واما هَدْفيلد فيذهب الى ان قدماء المصريين كانوا يصنعون ادوات فولاذية على اختلاف انواعها وانهم كانوا يلحمون الصلب اذا انكسر . وعندهُ انهُ اذا ثبت ان صنّاعهم لم يبرعوا في صناعات الحديد والفولاذ فقد كانوا في الغالب يتقنون صناع الامم الاخرى

فوجود النقوش والتماثيل المصنوعة من حجر صلد لا يتفق والادلة المستخرجة من الآثار التي عثر عليها المنقبون . وقد نستطيع ان نعلل ندرة الادوات الحديدية في المدافن القديمة بتلفها صدأ او بوجود خرافة تمنع حفظ هذه الادوات مع امتعة المدفون فيُرَدُّ على ذلك بان صدأ الحديد لا يطير وان ادوات حديدية كثيرة وُجدت في المدافن بعد ١٢٠٠ ق.م ونحن نميل الى القول بان الحديد كان نادراً في مصر قبل سنة ١٣٠٠ ق.م. لان الدليل على هذه الندرة المنطوي في طلب رعمسيس الثاني حتحراً من ملك الحثيين وفي طبيعة الادوات الحديدية التي وجدت في مدفن توت عنخ امون ومكانها بين نفائس المومياء هو في نظرنا دليل قوي

اما وجود نماذج من الحديد ترجع الى العصر الواقع بين ٢٩٠٠ — ١٥٥٠ ق.م. فدليل على ان المصريين كانوا يعرفون الحديد نحو ١٥٠٠ سنة قبلما شاع استعماله . في هذا العصر كانت المقادير المتداولة قليلة جداً وكانت من صنع الوطنيين او من مستوردات التجار من الخارج . وقد قال بعضهم ان شعباً ذكيّاً كالشعب المصري ما كان يكتفي بهذا القدر الضئيل من الادوات الحديدية ولا بدَّ انهم عنوا باستخراجه وصناعته . وقوام هذه الحجة ان الادوات

الحديدية تفوق ادوات النحاس والبرونز في نقش التماثيل والكتابات في الصخر الاصم. ولكن ضعفها يظهر اذا نحن قدّرنا ان التجارب الاولى في اخراج ادوات حديدية لا بدّ أن تسفر عن حديد لين لا يفيد الشعب المصري ولا اي شعب آخر اذا قيس بالادوات البرونزية . فنحن ننسى ان مقام الحديد في الحضارة الحديثة سببهُ كثرة الحديد واخلاطه القاسية التي تصنع منه . وما يعرف عن صناعة الحديد يدلُّ على ان الحديد الخارج من الاتون يحتاج الى طرق شديد للحصول على كتلة معدنية ومن هذه الكتلة المعدنية تقطع الادوات المطلوبة ثم تجمى وتطرق وبعد ذلك تخرج اكثر ليناً من البرونز وخصوصاً اذا كان الحديد خالياً من اثر الكربون فيه كما يكون الحديد الصافي غالباً. فالادوات الحديدية حينئذٍ لم تفق الادوات البرونزية وصنعها كان اصعب . فعدم استعمال الحديد عند قدماء المصريين لا يرجع الى جهلهم به بل الى اختبارات اخرى تلخص في انهُ لدى الموازنة بين الحديد الطيني الليّن والبرونز وجدت فوائد البرونز اكثر واجلى

ولكن فوائد الحديد تزيد باكتشاف طريقة تمكن صانعه من خلطه بكربون فيتسو ويصبح فولاذاً. ويتسع نطاق فائدته متى اكتشفت طريقة اخرى لتقسيته باحمائه وتغطيسه بالماء . وباكتشاف هاتين الطريقتين تزيد صلابتهُ ويصبح ذا فائدة في صنع الادوات منهُ. والراجح انهُ لما أُكتشفت هاتان الطريقتان انتقل المصريون من عهد استعمال الحديد استعمالاً متفرقاً الى عهد التوسُّع في استعماله. والحد الفاصل بينهما هو القرن الثالث عشر ق.م.

وهناك مجموعات لا يستهان بها من الادوات الحديدية القديمة ولدى بعض علماء الآثار ولكنها لم تدرس درساً علميًّا من حيث بناؤها المعدني لان علماء الآثار يحجمون عن السماح للكيماويين وعلماء المعادن باتلاف جانب منها لدى بحثها . وهذا يصحُّ على البحث الكيماوي ولكن البحث المكرسكوبي يقتضي تنظيف بقعة صغيرة على سطح الادوات فقط ثم فحصها بالمكرسكوب. وقد ساعدنا الاستاذ فلندرز بتري في اختيار تسع ادوات من مجموعة كلية لندن الجامعة ندرسها على التوالي المتقدم وهي من عصور مختلفة تتباين من القرن الثاني عشر ق. م. الى القرن الثالث ق. م. فخرجنا من البحث بالنتيجة التالية:

ان طريقة المصريين في استخراج الحديد من ترمكانت بدائية ولكن الصناع استطاعوا ان يصنعوا منهُ ادوات تحتوي على صفات مختلفة بكربنته واحمائه فهذا البحث يكشف لنا للمرة الاولى ان الكربنة والتقسية وفوائد معالجة الحديد بالاحماء كانت معروفة بضعة قرون قبل التاريخ الميلادي وهو غير المشهور بين العلماء . وفي رأينا ان مصر لم تدخل عصر الحديد حقيقةً الا لما فهمت هذه العمليات وطبقتها اي لما استطاعت ان تحوّل الحديد صلباً